التفكير فريضة دينية

التفكير فريضة دينية

الإنسان فطرة وغرائز ومشاعر ووجدان وانفعالات ...

إنه قلب يدق ... وفؤاد يتموج ..

ثم الإنسان أولا وأخيرا عقل يفكر ... وبدون العقل والفكر يفقد الإنسان معنى وجوده فى الحياة ألم يقل ديكارت ، مثلا : أنا أفكر ، فأنا إذن موجود ! ... ليس هذا فقط بل أخطر من ذلك كله هو المسئولية أمام الله ، ومن ثم المصير الأبدى للإنسان ... ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

*

إن إعمال العقل فريضة ، ولازمة من لوازم الحكم فى مختلف القضايا وتحديد المواقف واتخاذ القرارات . « فمن خصائص العقل مَلَكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور .. ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائجه وأحكامه » (٢)

وفى إشارة إلى وظائف العقل من فهم وتبصر وإدراك ، تندد توراة موسى بغباء بنى إسرائيل وتمردهم على ربهم :

« ألرب تكافئون بهذا ، يا شعبا غير حكيم ؟! ...

إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم . لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم – تثنية ٣٢ : ٦ : ٢٨ » .

*

---

(١) المؤمنون : ١١٥

(٢) التفكير فريضة إسلامية : عباس محمود العقاد . دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة .

وقد أكد المسيح هذه الحقيقة التى توارثها الشعب الإسرائيلى فوصف معاصريه منهم بقوله : « مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون . فقد تمت فيهم نبوءة أشعيا القائلة : تسمعون سمعا ولا تفهمون . ومبصرين تبصرون ولا تنظرون . لأن قلب هذا الشعب قد غلظ . وآذانهم قد ثقل سماعها . وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم – متى ١٣ : ١٤ – ١٥ » .

بل وصف المسيح تلاميذه بالغباء وغلظ القلب فقال لهم : « ألا تشعرون بعد ولا تفهمون ؟! أحتى الآن قلوبكم غليظة ؟! ألكم أعين ولا تبصرون ،ولكم آذان ولا تسمعون ولا تذكرون ؟! – مرقس ٨ : ١٧ – ١٨ » .

*

لكن القرآن لا يذكر العقل عرضا ولا محتجبا فى سياق – كما جاء فى أسفار السابقين – إنما يذكرهُ فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه .. ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته .. بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصية أو وظيفة ..

فمن خطابه إلى العقل عامة – ومنه ما ينطوى على العقل الوازع – قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ التى تَجْرِى فِى البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا

به الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فيهَا من كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

ومنه فى سورة العنكبوت :

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾(٢)

وكل خطاب إلى ذوى الألباب فى القرآن الكريم فهو خطاب إلى اللب – هذا العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الإدراك والفهم فى ذهن الإنسان ، كما يدل عليه اسمه فى اللغة العربية : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٣)

أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى والروية فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٤)

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٥)

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٦)

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير فى الإسلام . وتبين منها أن العقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ، ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن الادكار ، وأنه العقل الذى يقابله الجمود

---

(١) البقرة : ١٦٤ (٢) العنكبوت : ٤٣

(٣) الزمر : ١٨ (٤) آل عمران : ١٩١

(٥) الأعراف : ١٨٥ (٦) سورة ص : ٢٩

والعنف والضلال ، وليس بالعقـل الذى قصـاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون ، فإن الجنون يسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع وفى كل عرف وسُنَّة » (١)

* *

والآن ماذا يقول العقل فى هذه المنظومات العددية فى القرآن ؟

نستفتح الإجابة بتمهيد يتعلق بذات الموضوع . فقد حدث منذ أكثر من عامين أن جاءت أستاذة جامعية من الدنمرك ، تستجلى بعض الموضوعات الإسلامية المتعلقة بالقرآن والرسول وعلاقات المسلمين مع الآخرين بوجه عام وعلاقتهم بالمسيحيين واليهود على وجه الخصوص . وقد استغرق الحديث فى هذه الموضوعات عدة جلسات . وفى واحدة منها جرى الحديث عن الإعجاز العلمى فى القرآن ، وكان من جملة موضوعاته ما بينته الإحصاءات من إصرار القرآن – الذى نزل على مدى ٢٣ سنة – على ذكر السمع قبل البصر (اسماً أو فعلا أو صفة) ، بينما جاء العكس بالنسبة لأدواتهما ، إذ تسبق العين الأذن دائما . ولقد صار واضحا الآن أن هذا يتفق والتشريح الوظيفى للمخ ، إضافة إلى أشياء أخرى ليس هذا مجال الحديث عنها .

فما كان من هذه السيدة إلا أن قالت : هذا عجيب ! إنه لا يمكن أن يحدث صدفة . فالصدفة لا تنتظم بهذا التواتر !

العقل – إذن – أمام هذه المنظومات العددية فى القرآن – مضاهاة بالمنظومات العددية فى الكون – لا يملك إلا التسليم بأن الذى صدر عنه هذا الكون هو – سبحانه – الذى صدر عنه هذا القرآن . وأن الذى نظم حركة الكواكب فى السماء وفق منظومات عددية هو – سبحانه – الذى نظم سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وفق منظومات عددية كذلك .

*

(١) المرجع السابق ص ٤ – ١٤ .

والناس أمام هذا النوع من القضايا الفكرية صنوف ثلاثة : قوم مُعْرضون ، لا يدركون ولا يأبهون ، استوى عندهم الشيء ونقيضه ،فكانوا عدما ، وتدنت خبرتهم فى الحياة عن معرفة المثل السائر بين عامة الناس والذى يقول : لن تعرف خيرى إلا إذا خبرت غيرى . وفى هؤلاء يقول القرآن :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١)

وقوم جاحدون بطبيعتهم يقول فيهم القرآن :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (٣)

وقوم يفرحون به ويزدادون إيمانا ويقينا . وفى هذا يقول القرآن :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِه فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤)

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالْمؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ، وَمَا هِىَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ * كَلاَّ وَالقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لإِحْدَى الكُبَرِ * نَذِيراً لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأخَّرَ ﴾ (٥)

حقًا إن المنظومات العددية فى القرآن العظيم لإحدى الآيات الكبر ...

* * *

(١) يوسف : ١٠٥ (٢) النمل : ١٤ (٣) يونس : ٩٦ - ٩٧
(٤) يونس : ٥٨ (٥) المدثر : ٣١ - ٣٧